إسهامات عائلة المقريين في الحركة العلمية بتلمسان في العهد الزياني

«أبو عبد الله المقري انمودجا»

دبوكرديمي نعيمة

– جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف –

Abstract :

During the Zayani Era, and according to biographies and books ,Tlemcen had witnessed many scientific families emergence , and foremost Almaqrien, a family that had a significant contribution to the scientific movement not just only in Tlemcen city, but in the Islamic Maghreb as a whole also. Thus, it became so famous because of this constellation of distinguished scientists who were well-known and bright, including the most famous researcher, Abu Abdullah Makari, the grandfather who was known by his great scientific contribution within and out of Tlemcen, due to the abundance of his knowledge.

مقدمة :

من أهم المظاهر الحضارية التي أفرزتها الحياة العلمية على مجتمع تلمسان في العهد الزياني ظاهرة الأسر العلمية التي أنجبت مجموعة من العلماء الذين برزوا في الحياة الدينية والتعليمية والفكرية وحتى السياسية أشهرها عائلة المقريين التي هي موضوع هذه الدراسة الموسومة بإسهامات عائلة المقرّي في الحركة العلمية في العصر الوسيط من خلال كتب التراجم –أبو عبد الله المقري الكبير نموذجاً–.

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنّها تؤرّخ لعالم من علماء أشهر العائلات العلميّة بمدينة تلمسان الزيانية، والتي شاركت في إثراء الحركة العلمية بها بحكم الأهمّية البالغة التي احتلّها لدى المجتمع والسلطة والنخبة بتلمسان وحتى خارجها وهو العالم الفاضل أبو عبد الله المقري وإبراز مدى إسهاماته العلمية في بلاد المغرب الإسلامي لما اشتهر به من علم وفقه، وتولّيه لوظائف هامّة كالتدريس والخطابة والتأليف وذلك من خلال كتب التراجم التي اهتمت بهم، وعلى رأسها كتاب البستان لابن مريم، وكتاب نيل الابتهاج، وكتاب كفاية المحتاج لأحمد بابا التمبكتي وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، وذلك باعتبار أن كتب السير والتراجم تحتوي على معلومات غزيرة حول الموضوع وذلك من خلال التعريف بهم وبنسبهم وموطنهم وشيوخهم وتلاميذهم وإسهاماتهم العلمية بتلمسان خلال العهد الزياني.

1–التعريف بالعائلات العلمية: يجمع عدد من الباحثين على اعتبارها البيوتات العلمية أو الأسر العلمية، وهذه الأخيرة تنقسم إلى بيوتات أو عائلات علمية كبرى وهي البيوتات التي أنجبت ثلاثة علماء فأكثر، اشتهروا بإنتاجهم العلمي، وكان لهم نشاطات مختلفة وبارزة في شتى الميادين العلمية، فكانت بيوتهم أكثر شهرة إلى جانب توفرها

على شرط النفوذ والجاه والثروة[1]، وفي تلمسان الزيانية يمكن أن نعدد ثلاثة بيوتات هي بيت المقري، وبيت المرَازقة، وبيت العقبانيين مع الإشارة إلى وجود بيوتات علمية أخرى في تلمسان أقل ذكر أو شهرة تعرف بالبيوتات الصغرى نذكر منها بيت الشريف، بيت أولا الإمام، بيت ابن زاغو، وبيت المغراوي وبيت ابن هدية، وبيت ابن عبد النّور[2] التي كان لها أثرها العلمي الكبير من خلال كتب التراجم.

2-عائلة المقري (نسبهم ومكانتهم العلمية)

يعدّ هذا البيت من البيوتات العريقة بتلمسان، وقد ذاع صيته وشهرته من خلال العلماء الذي أنجبهم وما أنتجوه من إنتاج علمي كان له دور وإسهام في تنشيط الحركة العلمية والفكرية والاقتصادية ببلاد المغرب الإسلامي[3].

*نسب عائلة المقري:

ينسب البيت المقري إلى قبيلة قريش العربية التي ينتسب إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم فعند تتبعنا لشجرة نسب هذه الأسرة بدءً من أبي العباسي أحمد المقرّي صاحب كتاب "نفح الطيب"، المتوفي سنة (1041هـ/1632م) فنجده كالتالي، "أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرّحمن بن أبي بكر بن علي القرش المقري[4].

وقد أثبتت هذا النسب عدد كبير من المؤرخين والنسابة منهم أحمد بابا التنبكتي في كتابه النيل، وابن القاضي في درّة الحجال وبعده ابن مريم في البستان الذي قال فيه: "سيدي محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يحي بن عبد الواحد القريشي"[5] بالإضافة إلى الشيخ بن غازي.

وعليه، فقد أجمعت كتب التراجم من المتقدّمين والمتأخرين على هذا النسب القرشي الذي ينتسب له رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمّا جغرافيا، فهو ينتسب إلى مقرة التي أشار إليها كل من اليعقوبي في كتابه البلدان بقوله "ومدينة يقال لها مقرة... ومدينة بها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم بنو زندار" [7] وكذلك البكري في مسالكه وممالكه الذي قال عنها "ومن طبنة إلى مدينة مقرة وهذا بلد كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع"[8]، والإدريسي حيث قال "وتخرج من المسيلة إلى مقرة مرحلة، وهي مدينة صغيرة ولها مزارع وحبوب..." [9]، وهي قرية من قرى إقليم الزّاب الذي يبدأ غرباً من تخوم المسيلة ويحدّه شمالا جبال مملكة بجاية إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس وجنوبا إلى القفاز التي تقطعها الطريق المؤدية إلى تقرت إلى وركلة[10]

* انتقالها إلى بلدة تلمسان:

أمّا عن فترة انتقالها إلى بلدة تلمسان، فقد كان في القرن السادس الهجري (12م) بعدما عمّرت عقودا ببلدة مقرة، وأوّل من انتقل جدّهم عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القريشي المقرّي صحبته الشيخ أبي مدين بن شعيب بن الحسين الأندلسي، فالجد عبد الرحمن كان رجل صلاح وفضل وعبادة، وكان من مريدي الشيخ الصّوفي أبي مدين، وقد ذكر ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في جزئه الثاني بأنّه ذلك ممّا نقل من خط أبي عبد الله محمد المقري الذي قال في شأن ذلك: "وكان الذي اتخذها من سلفنا قرارا بعد ان كانت لمن قبلنا مزاراً عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرّي صاحب الشيخ أبي مدين الذي دعا ولذريته بما ظهر فيهم قوله وتبيّن وهو أبي الخامس"[11].

ومع بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بدأت هذه الأخيرة أو الأسرة تعمّر بتلمسان وتساهم في بنائها الحضاري اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، ومع الزمن مع نموها وتفرعها انطلق إسهامها من تلمسان نحو أقطار المغرب الإسلامي.

اشتهرت عائلة المقرّي في العهد الزياني بالعلم والتجارة، فأمّا التجارة، فقد أنشأ أبناء يحي بن عبد الرحمن المقري، وهم خمسة شراكة تجارة بينهم، وكانت تقوم بالتجارة من تلمسان إلى سجلماسة ومنها إلى إيولاتن، وهي مملكة صغيرة ببلاد السودان، وتمكّن هؤلاء الإخوة من تكوين ثروة هائلة من تجارتهم، وقد دفعهم هذا النشاط الاقتصادي المتميّز إلى اقتناء الكثير من الكتب وإقامة خزانة كبيرة منها إلى جانب اهتمامهم بالجانب الاقتصادي، لكن لم يستفد أحفاده ومنه أبو عبد الله المقري (ت 759هـ/1359م) من أثر تلك النعمة حسب ما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة[12].

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ أسرة المقرّي زيادة على اهتمامها الكبير وتخصّصها في النشاط التجاري، فإنها لم تهمل الجانب العلمي.

*علماء بيت المقرّي:

أنجب هذا البيت ثلة من العلماء استفادوا من الازدهار الحضاري الذي عرفته تلمسان في العهد الزياني، وقد ساهموا بحركاتهم ونشاطاتهم المختلفة، ورفعوا منزلتهم العلميّة بصفة خاصّة ومكانة تلمسان والمغرب الأقصى على التحديد، ومن هؤلاء نذكرّ:

- أبو عبد الله محمد المقرّي (ت 759هـ/1359م).
- أحمد المقرّي النحوي (ت بعد 847هـ/1443م).
- أبو العبّاس المقرّي (986هـ/1577–1578)(ت 1041هـ/1623م)[13].

أ–التعريف بشخصية أبي عبد الله المقري: (ت 759هـ/1359).

أجمعت كتب السير والتراجم التي ترجمت له، ومنها أحمد بابا التنبكتي والقرافي، وابن الخطيب، وابن القاضي المكناسي وابن مريم على أنّه: "محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرّحمن القريشي، ولد بتلمسان في عهد السلطان الزياني أبي حمو موسى الأوّل بن عثمان أحد سلاطين تلمسان في أوائل القرن الثامن الهجري/ 14م الذي حكم من (707هـ/1307م إلى 718هـ/1318م)، وذلك حسب ما يذكره لنا ابن الخطيب في كتابه الإحاطة الذي قال فيه "غير أن عبد الله محمد المقرّي نفسه ذكر في فهرسه أنّه ولد في أوائل القرن الثامن الهجري/ 14م"[14].

ب– تكوينه وشيوخه:

عكف الشيخ المقرّي على دراسة القرآن الكريم ببيته حيث حفظه على الرّايات السّبع، ثم تعلّم اللّغة العربيّة، حيث درس كتاب التسهيل في اللّغة العربيّة وحفظه، ثمّ درس قواعد العلوم الدينيّة في الفقه وعلم الأصول، كما جلس المقرّي إلى العديد من مشايخ الحواضر العلميّة، وتلقّى تعليمه الأوّل عليهم، ذكرهم وأحصاهم صاحب النفح نحو سبع وستين شيخاً منهم سبعة و عشرون شيخا من تلمسان وعلى رأسهم الفقيه عمران المشدالي الذي تعمّق معه في الدّراسات الفقهيّة[15]، كما لزم مجلس الشيخ الإمام الابلي الذي وصفه مترجمه ومنهم التنبكتي في النيل بأنّه: "أعلم

خلق الله بفنون المعقول"[16]، كما وصف بعالم الدّنيا، كما لزم مجلس الإمامان الراسخان الشامخان ابن الامام أبو زيد عبد الرحمن وأخوه أبو موسى عيسى الذين وصفوا من قبل مترجميهم كالحفناوي في تعريف الخلف برجال السّلف في ج2 والزّركلي في أعلامه ج6 بعالما المغرب في وقتهما، فيكفيهم فخرا أنّهما ناظرا الامام ابن تيمية وتفوقا عليه[17].

كما استفاد المقرّي بتلمسان من الشّيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن هدية القريشي (ت 735هـ/ 1335م) والشّيخ محمد الحسين البروني، وهو من الواردين على تلمسان من الأندلس وأبو إسحاق إبراهيم بن حكم السلوي، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن يحي بن النجّار الذي وصفه المقرّي بنادرة الإعصار، وقد ناقشه في بعض الفروع الفقهية"[18].

ومن شيوخه أبو عمران موسى المصمودي الشهير بالبخاري، لأنّه استمرّ في تدريس صحيحه، واستفاد من أبي محمد عبد المهمين الحضرمي والفقيه أبو عبد الله بن سليمان السطي (ت 749هـ/1348) الذي قرأ كتاب الحوفي علما وعملا والشيخ أبو عبد الله الرندي الفاسي وأبو عبد الله بن عبد الرزاق الجزولي والشقيقان أبو عبد الله محمد وأبو العبّاس أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي[19].

إنّ احتكاكه مع هذا الكمّ الكبير من العلماء، مكّن الإمام المقري من تحصيل علومه ومعارفه على يد كبار شيوخها، وبعد هذه الاستفادة من علماء تلمسان، ما كان على أبو عبد الله المقرّي إلّا أن يقوم برحلة علمية إلى مختلف الحواضر الإسلامية قصد لقاء الشيوخ من أجل إتمام وإكمال علومه.

3– صفاته ومنزلته العلمية:

يعدّ أبو عبد الله المقري من مشاهير علماء القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ببلاد المغرب الإسلامي عرف بعلوّ مقامه ورفعة شأنه، حيث لا يمكن حصر مكانته في حيّز مكاني ولا زماني، وذلك لعظم هذه المنزلة التي تبوأها في حياته وبعد وفاته، وكفاه فخرا ما أبداه علماء عصره من تنويه بهذه المنزلة التي حظي بها، وما شهد به المؤرّخون له حسب ما ذكر ابن مريم في بستانه قائلا عنه "كان صاحبنا المقرّي معلوم القدر، مشهور الذكر، ممّن وصل إلى درجة الاجتهاد المذهبي..."[20] ووصفه عبد الرحمن بن خلدون بأنّه: "كبير العلماء بالمغرب" [21] وقال عنه أيضا "واستبحر في العلوم وتفنّن"[22].

ويورد تلميذه ابن الخطيب شهادة عن تبّحره في العلم فيقول: "هذا الرّجل مشار إليه بالعودة المغربية اجتهادا ودؤوبا وحفظا وعناية واطّلاعا ونقلا ونزاهة" [23]ويقول أيضا "يقوم أتمّ القيام على العربيّة والفقه والتفسير، ويحفظ الحديث ويتهجّر بحفظ الأخبار والتاريخ والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق ويكتب ويشعر مصيبا في ذلك غرض الإجادة"[24].

إنّ هذا الثّناء الكثير على أبو عبد الله المقرّي يؤكّد على أنّه كان عزيز العلم في مختلف الفنون، ولذلك أقترن اسمه في كثير من الأحيان بألقاب مختلفة منها العلّامة، وتطلق على الشّخص الواقف على العلوم، والإمام، والمقصود بها اصطلاحا المقدرة، وفي الحياة العلمية تطلق على كلّ عالم برز في علم أو أكثر، وكان قدوة في العلم، والفقيه، وهو العالم بالأحكام الشرعية والمفتي، قال عنه أحمد بابا التنبكتي في النيل " الإمام العلّامة النظّار المحقق القدوة الحجة الجليل"[25].

كما كان له مكانته في التصوّف الذي ميّز عصره كما سبق الذكر، حيث أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله "يتكلّم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ويُعنى بالتدوين فيها"[26].

اجتمعت عدّة صفات لدى المقرّي الجدّ منها الورع والتقوى والخلق الكريم والتواضع والشجاعة في الإعلان عمّا يراه صوابا، ويتجلّى ذلك من خلاله ما رواه "أبو يحي المطغري بقوله: "أمر أبو عنان الفقيه المقري بإقراء التفسير بحضرة العلماء فأبى وقال "أبو عبد الله الشريف أحق به منّي فقال السلطان: أنت تعلم علوم التفسير فقال المقري: الشريف أعلم بها مني، فلا يستغني الإقراء بحضرته، فعجبوا من إنصافه، ففسّر الشّريف بحضرة كافّة العلماء، ونزل السّلطان وجلس معهم على الحصير، إضافة إذ ذلك فإن أبو عبد الله المقري كان يعطف على الفقراء ويساعدهم ومثال ذلك تلك المرأة التي كان يقضي حوائجها[27].

فممّا لاشكّ فيه أنّ هذه الصّفات الحميدة، والخصال العلميّة التي تميّز بها بوّأت له مكانة تقلّد بها عدّة وظائف سامية سواء بتلمسان أو فاس وحتّى غرناطة، كما أنّه استحقّ منزلة من التقدير عند علماء فاس لدرجة أنّه صنّف أحدهم مؤلّف في ترجمة المقرّي أسماه "الزّهر الباسم" جاء في صدره أبيات في مدح المقرّي منها:

إِذَا ذَكَرْتَ مَفَاخِرَ أَهْلَ فَاسٍ   ذَكَرْنَا مَنْأَتَى مِن تِلِمْسَان

وَقُلْنَا هَلْ رَأَيْتُمْ فِي قُضَاةٍ   شَبِيهًا لِلْفَقِيهِ الْعَدْلِ ثَانِي

وَنَفْسُ الْعِلْمِ إِنْ شَاَنْت لِشَخْص   فَمَا لِلْمَقَرِّي فِي الْعِلْمِشَانِي[28]

4–إسهاماته العلمية:

ممّا لاشكّ فيه أن ذلك التكوين وتلك الرّحلات العلمية التي قام بها أبو عبد الله المقري إلى مختلف الحواضر العلميّة بالعالم الإسلامي، اكتسبه زاداً معرفيا مكّنه من المساهمة في ازدهار الحركة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي، وتتّضح هذه المساهمة من خلال تولّيه لمناصب سامية في معظم البلاد التي حلّ بها، وتتّضح من خلال أثاره العلمية العديدة والتي تتمثل في مؤلفاته المدوّنة وشعره وفتاويه وآرائه الإصلاحية إضافة إلى مهمّة التعليم التي قام بها، وكون من خلالها أعلاما كان لهم الدّور في إثراء الحركة العلمية بالمنطقة.

أولا: الدور العلمي لأبي عبد الله المقري:

دوره في التعليم: كان التعليم أحد المهام التي قام بها أبو عبد الله المقري بحواضر المغرب الإسلامي، فبعد تحصيله العلميّ على مشايخ تلمسان ومجالسته للعلماء في رحلته العلمية انتصب للتدريس وتولّى مهنة الإقراء والتبليغ ممّا أوتي من العلم، فدرس بداية بتلمسان مسقط رأسه وكان ذلك بعد عودته من رحلة الحج [29]في حدود سنة (730هـ/1329م)[30] غير أنّ تدريسه بتلمسان كان عابرا إذ لم يشر من ترجموا له إلّا بكلمة مدرّس، ومن ذلك ابن فرحون الذي ذكر بشأنه قائلا: "أقرأ بها وانقطع إلى خدمة العلم" [31]، وأيضا جاء عن الونشريسي أنّه: "نشأ بتلمسان وقرأ وأقرأ"[32] ثم تولّى مهمّة التدريس بالمناطق التي ارتحل إليها منها حاضرة فاس التي رحل إليها صحبة السلطان المرينى "أبي عنان" الذي قام ببناء له المدرسة المتوكلية فكان من ألمع مدرسها وأشهرهم حيث تصدّر مجالس العلم والمناظرة التي كانت تقام في حضرة أبي عنان، ويملى بها دروسه [33]،فكان من أوائل العلماء الذين تصدروا للتدريس

بها على كرسي التفسير والحديث الموجود بداخل قاعة الصّلاة عند القبلة بهذه المدرسة، ثم رحل المقرّي إلى الأندلس، واستقر بغرناطة في أوائل جمادى الثانية سنة (756هـ/1355م)، وهناك انتصب للتدريس بجامع غرناطة وألقى دروسا بمدرستها النصريّة الشّهيرة أين برز من أكبر المدرسين بها لغزارة علمه وحتّى أسلوبه وطريقة حواره في إيصال المعلومة.

* الكتب التي كان يدرسها:

من بين المواد التي تمحورت حولها حلقات دروسه، يظهر أنّه درس العلوم الدّينية بصفة عامة وخاصة العلوم التي برز فيها ومنها:

الفقه: وكان مختصر ابن الحاجب لعثمان ابن عمر بن الحاجب أهم كتاب درسه المقرّي لطلبته وهو من أهمّ مصادر الفقه المالكي، وأحد الكتب الأساسية في تدريس العلوم الدّينية في بلاد المغرب الإسلامي[34].

النحو: درس المقرّي كتاب الجمل للزجاجي (ت 339هـ/ 941م) واسمه الكامل "الجمل الكبرى في النحو".

الحديث: درس المقرّي كتاب جامع الترمذي (ت 275هـ/ 877م)، ودرس أيضا صحيح البخاري لمحمّد إسماعيل البخاري (ت 256هـ/ 858م).

زيادة على هذه الكتب، فقد درس المقرّي كتب أخرى في فنون مختلفة منها كتاب الجمل للخونجي في علم المنطق (ت 646هـ/ 1247) إضافة إلى مؤلفات أخرى منها بعض القصائد الذائعة الصيت، وهذا أن دلّ على شيء فإنّه يدل على غزاره علمه[35].

* تلاميذته:

نظر لشهرته بالعلم وصلاحه، فتتلمذ على يده عدد وافر من العلماء الذين كان لهم دور كبير في وإسهاماته خاصّة في العلوم الإسلامية من أبرزهم، لسان الدّين بن الخطيب الغرناطي القرطبي الوزير المؤرخ والأديب صاحب كتاب الإحاطة، شاركه ابنه أبو الحسن علي في الأخذ عن المقري، وإبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، توفّي بغرناطة عام(790هـ/ 1388م)، وأبو عبد الله محمد بن علي بن علّاق الذي تكوّن على يد علماء كثيرين وعلى رأسهم الشيخ المقرّي الذي استفاد منه كثيرا، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المقري النفزي الرندي، أبو عبد الله بن زمرك الغرناطي المولود سنة (733هـ/ 1332م) بغرناطة ونشأ بها، وهو من مفاخرها.

وانتفع بالقاضي المقرّي إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي من أئمّة المالكية بالأندلس وعبد الرّحمن بن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) الذي أخذ عنه ووصفه بكبير علماء المغرب في كتابه التعريف[36].

ثانيا: دوره في القضاء والفتوى:

أ دوره في القضاء:

تولّى المقري منصب قاضي الجماعة بفاس وهو أعلى منصب قضائي لمدّة سبع سنوات وذلك بحكم جملة من الشّروط والمؤهلات التي مكنته منه، ومنها.

– الاطّلاع الواسع في ميدان الفقه وخاصّة العلم بالأحكام الشرعية.

– التحلّي بالآداب الشرعيّة مثل النّزاهة والاستقامة، والالتزام بالصّدق والأمانة والشجاعة والجرأة ونقف عند ذلك لمّا قام السلطان أبو عنان من عزله (المقرّي) عن منصب قاضي الجماعة بفاس نظرا لصرامته وقوّتهفي تنفيذ للحق.

– **البعد عن التعصّب والهوى والمطامع الشّخصية، ويظهر ذلك من خلال موافقة وآرائه الإصلاحية وتنقّلاته بين حواضر المغرب الإسلامي كتونس وفاس والأندلس، الأمر الذي مكّنه من حضور مجالس غيره من القضاة.**

اشتهر أبو عبد الله المقرّي في قضائه بالحزم والمهارة القضائية، فأنفذ الحكم وأعلن كلمة الحق، وصارت الأحكام التي يصدرها يستشهد بها في مختلف القضايا والنوازل فهي حجّة لصدورها عن عالم حافظ وواسع الاطلاع[37].

وقد وصف لنا تلميذه ابن الخطيب سيرته في القضاء وعدله في إنفاذ الحكم وصبره في تدقيق التحقيق ورزانته في الاستماع إلى الخصوم بكل رفقة، بعد أن حضر بعض مجالسه القضائية بفاس فقال: "فاستقلّ بذلك أعظم استقلال، وأنفذ الحكم وألان الكلمة وأثر التسديد، وحمل الكل وخفض الجناح فحسنت عنه القالة وأحبته الخاصّة والعامّة، حضرت بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللّدد وتأتّيه للحجج، ورفقه بالخصوم ما قضيت منه العجب"[38].

وكذلك ينقل لنا أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج عن الونشريسي قوله: "لمّا تولى قضاء فاس، قام بأعبائه علما وعملا وحمدت سيرته، ولم تأخذه في الله لومة لائم[39].

ب–فتاويه:

لما تولّى المقرّي منصب قاضي الجماعة بفاس، ولمع نجمه حتّى أصبح كبير علماء المغرب كما أطلقه عليه ابن خلدون، فكان من الطّبيعي أن يقصده الخاصّة والعامّة للاستفتاء فيما يعرض لهم من نوازل.

كان المقرّي ينبذ التعصّب لمذهب من المذاهب أو رأي من الآراء دون حجّة، وعليه فكان يدعوا إلى ترك المسائل الافتراضية التي لا تنفع الناس، والاعتماد على الدّليل والبرهان والتحليل والتوجيه.

احترام أراء العلماء والسّابقين له، فلم يتعرّض في فتاويه لمن خالفه الرّأي من المفتين في المسألة بالتخطئة ولا الاعتراض.

الالتزام بمذهب الإمام مالك، حسبما التزم في الغالب من فتاويه بالمشهور والمعتمد في المذهب ليس تعصّبا منه للمالكية، وإنّما تثبيتاً منه وتحقيقا للأقوال الرّاجحة الصحيحة وذلك عملا بقول العلماء: "لا تجوز الفتوى بغير المشهور والمعتمد في المذهب"[40].

نماذج من فتاويه:

1 – فتوى المقرّي لأبي عنان عمّن لزمته يمين على نفي العلم فخالف جهلا على الثّبت هل يعيد اليمين فأجاب بإعادتها.

2 –فتوى المقرّي فيمن أوصى بثلث ماله واشترط أنّه لا يرجع في وصية فكان جواب المقرّي بطلان الوصية التي أوصى بها رجل عند سفره.

3 -فتوى المقرّي بثواب الشرف من جهة الأم، وهي مسألة وقع فيها خلاف بين فقهاء عصره فكان له فيها موقف وسط بين الطّرف المثبّت للشّرف والطّرف الثّاني له.

ثالثا: أراءه الإصلاحية:

تميّز الامام أبو عبد الله المقري بنظرة ثاقبة، وأفق واسع، عندما كان ينظر إلى مشاكل عصره ولا سيما العلميّة منها باهتمام بالغ معالج للكثير منها[41].

رأي المقرّي في طرق التحصيل والدراسة:

كان ينظر أو يرى أنّه ينبغي على كل طالب علم القيام بالرّحلة العلميّة لأنّها تجعل الإنسان حرا في تحصيل العلم، والاستزادة منه، ولقاء المشايخ بالمباشرة، وبناءً على ذلك استنكر كثرة التآليف وبناء المدارس التي انتشرت في عصره لأنّهما شغلا الطلّاب عن الرحلة في طلبه وأفقدهم تحصيله، وهو بذلك يأخذ نفس منحى شيخه الآبلي الذي عارض ذلك ومن ذلك نجد:

– فتوى النقل عن غير المعتمدين من المختصرات.

– ذمه للتعصب المذهبي[41].

خامسا: التأليف:

زيادة على نشاطه كعالم من علماء بيت المقرّيين في ميدان التعليم وخطّة القضاء، كان له إسهام في الحركة التعليمية من خلال ترك مؤلّفات تحفظ اسمه وذكراه في مواضيع مختلفة سواء كانت موجودة أو مفقودة، منشورة أم لا زالت مخطوطة، ومن بين مصنّفاته التي يبدو أنّ ما يميّز أغلبها أنّها في عداد التراث الضائع نذكر:

– كتاب القواعد الذي قال في شأنه أحمد بابا التنبكتي نقلا عن تلميذه لسان الدين بن الخطيب أنّه اشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ضمّنها كل أصيل في الرأي والمباحث"، وقيل أنّه اشتمل على 1200 قاعدة، وقال فيه الشيخ الفاضل بن عاشور أنّ أعلى تصانيفه قيمة كتاب القواعد، فهو عجيب الاختراع، بعيد المنزع، قصد فيه إلى استخلاص المبادئ الكليّة التي أقيمت على النظريات الفقهية في كل باب وقارن بين قواعد فروع كلّ مذهب من المذاهب الأربعة، وهي القواعد في الأصول الأربعة لأمهات مسائل الخلاف الفقهي، وقد غاص فيه في بحث مسائل مقاصد الشريعة الإسلامية، وأسرار الأحكام وربط الفروع بالقواعد، وبيّن ما نشأ من الخلاف المذهبي على الاختلاف في أصل هذه القواعد، والكتاب مخطوط بمكتبته أسكوريال، وقد تمّ تحقيقه لنيل درجة الدكتوراه[43].

– كتاب عمل من طبّ لمن حبّ ألّفه سنة 753هـ/1352م، وهو من صنف التأليف للمبتدئين الذي تمّ فيه مراعاة تفاوت مستوى الطّلبة الذين لم يتعمقوا في الدّراسة، ولم تسبق لهم دراسة واسعة وجاء متنوّع المواضيع اشتمل على أقسام:

القسم الأوّل منه اشتمل على أحاديث شريفة متعلّقة بالأبواب الفقهيّة والقيم.

القسم الثاني الكلّيات الفقهية في 525 كلّية ضابطة لمسائل الفقه في غاية الإفادة، فهي تلخيص لأهمّ الأفكار في المذهب المالكي على المشهور والصّحيح، وقد تناول أهم مسائله فهي تعين الطّلبة على استيعاب الفروع وحفظ المسائل وتمهيد الطّريق لمن أراد أن يتوسع.

القسم الثالث يتضمّن قواعد الأصول وعددها مائتين، واشتملت على قواعد فقهية، وأخرى أصوليّة صاغها بعد استنتاجها من الفروع المعهُودة والقسم الرّابع اشتمل على الألفاظ المستعملة في الأفكار الشرعية، وهو عبارة عن مدخل للمصطلحات الفقهية من الأفراد والحكم المأثورة عن طائفة من الأعلام[44].

ويشير لنا أحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الانتهاج " بأن الونشريسي صاحب المعيار قال عنه "رأيته عند الفقيه عبد الله بن عبد الخالق، فتلطّفت في استنساخه فلم يسمح به"، أمّا حفيده المقرّي، فقد رأى هذا الكتاب بحاضرة فاس وقال قلت: "وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف"[45].

– كتاب المحاضرات وهو كتاب ضمّنه آداب المحاضرة ومجالس المناظرة وتراجم، وتناول التوحيد، وهو يردّ على المتصوّفة، وكان تأليفه 757هـ/1357.

الحقائق والرقائق: يعدّ من كتبه القيّمة التي اشتهر بها، موضوعها التصوّف، وفيه خلاصة المعرفة وصفوة العالم ونقاوة العمل ومزج فيه بين حقائق العبادة والعمل ورقائق زبدة التذكر قال عنه الونشريسي: "كتاب بديع المنزوع لطيف الإشارة، وهو كثير بأيدي الناس في تلمسان وفاس" وله كتب أخرى في التصوّف منها "إقامة المريد ورحلة المتبتل"، وكتاب "التحف والطرف"، وأخرى متنوّعة منها "مختصر ابن الحاجب الفقهي"، "والجامع لأحكام القرآن"، و"شرح جمل الخونجي" في المنطق، و"ونظم اللالي في سلوك الأمالي"، وبرنامج ضمّنه شيوخه الذين أخذ عنهم، وكتاب المحرك لدعاوي الشرّلأبي عنان وقصائد شعرية في مختلف الأغراض[46].

وما يلاحظ على هذه المؤلفات أنّها إبداعية عملا بدعوة شيخه الأبلي في التنديد بكثرة التآليف الرديئة والعمل على إصلاح منهج التأليف، وهذه الرّداءة فسّرها الشيخ أبو عبد الله المقرّي بالابتعاد عن التعامل مع الأصول من المصادر الأساسية القرآن الكريم، السنّة النبويّة، اكتفاء الناس بما قاله العلماء ثمّ تدوين ذلك في كتب، استباحة النقل من المختصرات، وتركهم الرّواية لكثرة التصنيف وانقطاع سلسلة الاتّصال حتّى قال عنها "تقييدات للجهلة بل مسودّات المسوخ".

الخلاصة:

إنّ ما يمكن استخلاصه في الأخير حول إسهامات عائلة المقرّي في الحركة العلمية بتلمسان هو أنّه لم يكن لها إسهام وتأثير بتلمسان الزيانية فقط، وإنّما امتد إلى خارجها، كما هو شأن أبي عبد الله المقرّي الجد الذي كانت إسهاماته العلمية بشكل كبير بمدينة فاس، ويظهر ذلك الإسهام في الحركة العلمية بتلمسان وغيرها من خلال كتب التراجم التي ترجمت له،وإلى ذلك العدد من المناصب التي تولّوها كالتدريس والقضاء، وكذلك الإنتاج العلمي، هذا بالرغم من أنّ هذه الكتب لم تتعرّض لترجمتهم بالتفصيل، وإنّما اكتفت فقط بإشارات لذلك، وهو ما جعلنا نوعا ما لانستطيع الإلمام بكل ما تعلق بسيرهم وإسهاماتهم.

الهوامش:

1– نصر الدين بن داود، بيوتات العلماء بتلمسان من القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي(مرقونة)، جامعة تلمسان، 2009، ص .56

2– نفسه، ص .59

3– نفسه، ص .59

4– ابن فرحون، الديباج في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحمدي، دار التراث للطباعة والنشر، ج3 ص .245

5– أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تح علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، 2004، ص 146،ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، حققه وعلّق عليه مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، ط 1، 2002، ص 161، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 45.

6- سورة قريش، الآية [1-4].
7- اليعقوبي إسحاق، البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ص .95
8-البكري أبو عبيد الله، المسالك والممالك، تح أندريان فان ليوفن، وأندريه فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 70.
9- الإدريسي أبي عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د ط، د ت، ص .185
10- المصدر نفسه، ص .185
11- لسان الدين بن الخطيب،/ الإحاطة في أخبار غرناطة، حقّق نصّه ووضع مقدّمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخونجيط1، القاهرة، 1974، م2، ص .226
12-نفسه، م2، ص 226
13- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العهد الحاضر، مؤسسة نويهض، ط2، بيروت، 1980، ص ص 111، 112، 113.
14- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، م2، ص .227
15- أحمد المقري، نفح الطيب من غسن الأندلسي الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، د ط، بيروت، 1988، ج2، ص ص 99، 100.
16-التنبكتي، المصدر السابق، ص .206
17- المصدر نفسه، ص 207. ابن مريم، المصدر السابق، ص .194
18- المصدر نفسه، ص .195
19- المصدر نفسه، .196
20- نفسه، ص ص 196، 197.
21- عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979 ص67.
22- نفسه، ص ص 67، 68.
23- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، م2، ص .227
24- المصدر نفسه، ص .228
25-التنبكتي، المصدر السابق، ص 122.
26- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص .75
27- لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، م2، ص ص 229، 230 .
28- نفسه، م2 ، ص .230
29- نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص 75
30- نفسه، ص 75.
31- ابن فرحون، المصدر السابق، ص 282.
32-الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية للمملكة المغربية، 1981، ص 479، 480.
33-المقرّي، المصدر السابق، ص 203. ابن مريم، المصدر السابق، ص .47
34-فافا بكوش، أبو عبد الله المقري ت (759) ورحلته بين تلمسان وحواضر المغرب الإسلامي، مذكرة ماجستير، جامعة تلمسان، 2011، 2012، ص 45.
35- نفسه، ص46.
36 - نفسه، ص ص 46، 47.

37 – نفسه، ص .48
38– لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص 232.
39– أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص .162
40– نفسه، ص105، 106، فافا بكوش، المرجع السابق، ص .49
41– نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص 80. فافا بكوش، المرجع السابق، ص .61
42– نفسه، ص .63
43– نصر الدين بن داود، المرجع السابق، ص .57
44–التنبكتي، المصدر السابق، ص .164
45– أحمد المقري، المصدر السابق، ص .204
46– نفسه، ص 205.